المحاضرة رقم 04: فروع علم البلاغة البيان / البديع / المعاني

علم المعاني :

أحد أهم فروع البلاغة الثلاثة بالإضافة إلى البيان والبديع ، ويعود الفضل في تقرير مسائله وشرح تفاصيله وتوسيع مباحثه إلى العالم الفذ عبد القاهر الجرجاني الذي استوعب هذا العلم من أطرافه فلم يدع للاحقين فيه ما يضيفوه إليه أو ما يستدركوه عليه ، لذلك كثرت شروح واختصارات وحواشي كتابي الدلائل والأسرار إلى الدرجة التي أسلمت البلاغة نفسها للجمود والتكرار[1] ، ولكنها لا تخفي الجهد المبذول في محولة تأصيل علم البلاغة وتتبع مباحثها.

وغالبا ما يعرف الشراح والدارسين علم المعاني بأنه :"علم يعرف به أحوال اللفظ العربي الذي يطابق بها مقتضى الحال ، فتختلف صور الكلام لاختلاف الحال ، من الخبر والإنشاء ، والذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والقصر ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب والمساواة.."[2] ، وربما هذا لتعريف يرمي إلى حصر أبواب هذا العلم على أساس من مقتضى الأحوال والمقامات التي تعرض للمتخاطبين ، وربما نجد تعريف السكاكي أكثر إلماما بخواص هذا اعلم إذ يقول:"إنه تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها على الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكه ."

وفي هذا التعريف يبدوا الحس التعليمي واضحا من خلال التركيز على الصواب والخطأ ، في مفهوم الإفادة أو المغزى من الخطاب الذي يرمي إلى القصد والفهم في مراعاة أحوال السامعين .

وإذا كان علم البيان يتعلق بالأمور المعنوية من تشبيه ومجاز وغيرها ، فإن علم المعاني كما بدا لنا يتعلق بالأمور اللفظية من الذكر والحذف ونحوهما على اعتبار أن علم البديع يجمع بين الفنين السابقين ، والناظر إلى مباحث علم المعاني يجد اشتباها كبيرا بعلم النحو في التقديم والتأخير والتعريف والتنكير وهو ما اضطرب عند البلاغيين الذين خرجوا من غاية علم المعاني في بيان وجوه اللفظ والترجيح بينها وبين غاية النحو التي تقف عند السلامة وانتظامها في اللسان العربي ، وهو ما وقع فيه السكاكي والخطيب القزويني[3] ، و هذا ما دفع بالبعض إلى تعريف علم المعاني بأنه "علم يبحث فيه عن أحوال التراكيب العربية من حيث السكنات والمزايا بعد فهم المعاني الأصلية من علم النحو"[4] ، ويبدوا من التعريف كأن علم المعاني تابع لعلم النحو أو فرع منه ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فقد يصح في النحو والتركيب لكنه يقبح من جهة المعنى في باب إفادة الكلام لمقتضى الحال ، ومن هنا استقل علم المعاني بمباحثه وأبوابه وانفرد بغايته وأهدافه التي فصل فيها القول عبد القاهر الجرجاني عندما تجوز مفهوم الصواب والخطأ في

---

[1] - ينظر : عبد العزيز عتيق : في البلاغة العربية (علم المعاني البيان البديع)، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص24.
[2] - حنفي ناصف وآخرون : شرح دروس البلاغة ، دار ابن الهيثم ، القاهرة ، 2008 ، ص 19.
[3] - عبد المتعال الصعيدي : البلاغة العالية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط02 ، 1991 ، ص40.
[4] -نفسه39

التركيب إلى ما يحسن به القول ويبلغ وتكون به المزية والبيان ، وبالتالي فإن علم المعاني يهتم بوجوب مطابقة الكلام لحالات ومقامات السامعين ، إذ قد يفضل الكلام بعضه من بعض ، لكنه يحسن أكثر إذا وافق مقتضى الحال أو يسوء إن جانبها ، ففي حالة الخبر لمن هو خالي الذهن منه يكون مجردا من أي تأكيد ، أما أكدنا الخبر لغير منكر له فقد أخللنا بأهم مبادئ أصول هذا العلم وهو مقتضى الحال.

علم البيان

غالبا ما يرتبط مفهوم البلاغة بالبيان ، كما لا يخف على الدارسين أن نشأة البلاغة العربية في بداياتها لم تكن تفرق بين البلاغة والبيان إذ لم تكن تعبأ بالمصطلح ولم تستوي العلوم إلى درجة يفرق فيها بين المصطلحات وحدودها ، وقد كان مصطلح البيان يضم مختلف فروع البلاغة العربية التي انفصلت في مرحلة التأسيس والتصنيف ، ولا عجب أن علم البيان قد انبثق في مرحلة النشأة من حقول معرفية مختلفة نتيجة تطور الحياة العقلية في المرحلة الأموية والعباسية على وجه الخصوص ، وذلك في حقل التفسير وفي بيئة المتكلمين والمعتزلة وعند أصحاب الإعجاز والبيان القرآني ، ولا شك أن أول من يرجع إليه الفضل في تأسيس هذا العلم وتشييد أركانه وتفصيل أفنانه هو عمر بن بحر الجاحظ صاحب (البيان والتبيين) ، إذ لا يذكر البيان إلا ويذكر كتاب الجاحظ الذي فصل فيه القول وميز بين التشبيه والاستعارة ومثل لكل نوع مع ملاحظاته القيمة وإشاراته الفريدة ، رغم أنه لم يعن بالمصطلحات والحدود النظرية ، واكتفى بإيراد الأمثلة والشواهد من الشعر والنثر عن التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز وحقيقته ، التي غدت في عصر التنظير قواعد وأساليب مفصلة ، ولا يشبه كتاب الجاحظ من القدماء إلا كتاب الضياء الدين بن الأثير637 هـ(المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) .

رغم أنه كان هناك جهود أخرى بعد الجاحظ عند ابن قتيبة والرماني في النكت والباقلاني في إعجاز القرآن وفي الوساطة للآمدي والموازنة للواسطي ، ثم أن نهضت على يد عبد القاهر ثم الزمخشري في الكشاف قبل أن تستسلم للقاعدة والقانون عند السكاكي والخطيب القزويني .

قال السكاكي في تعريف البيان :" هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة ، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه ، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك من الخطأ في مطابقة الكلام في تمام المراد منه."[5]

ويقصد به السكاكي أن إيراد المعنى على صور مختلفة لا يكون إلا في الدلالات العقلية ، وهو وجود علاقة بين المعنى والمعنى يقتضي الانتقال بينهما على أساس لزوم أحدهما للآخر بوجه من الوجوه ، ومن هنا يصبح علم البيان عند السكاكي[6] اعتبار الملازمات بين المعاني ، وهو ما يقصده في التشبيه بين المشبه والمشبه به وفي الاستعارة في العلاقة بين طرفيه التشبيه والمجاز من جهة مخالفتها للحقيقة ، وفي

---

[5] - محمد بن علي السكاكي : مفتاح العلوم ،تعليق وضبط : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، ط02 ، 1987 ، ص162

[6] - نفسه ص330.

الكناية بين إرادة المعنى القريب والبعيد ، وعلى هذا الأساس تصبح القرائن والأدوات وأضرب المعاني أهم ما يعول عليه في علم البيان.

علم البديع

وهو ثالث علوم البلاغة الذي اشتهر في العصر العباسي كظاهرة شعرية نهض بها الشعراء المولدون أمثال بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبو نواس ، مما دفع بابن المعتز لتصنيف كتاب سماه (كتاب البديع 274هـ) ، ثم كان أبو تمام الذي تمثل هذا التيار وبالغ فيه .

والمتطلع لكتاب البديع يجده يشتمل على خمسة أبواب : الاستعارة ، والجناس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والتكلف ، والملاحظ أن ابن المعتز اقتصر البديع على هذه الأبواب الخمسة التي تتفرع فيما بعد إلى ثلاثة عشر فنا بديعيا من التفات ، وحسن المدح ، تأكيد المدح ، وتجاهل العارف...وهي الفنون التي شكلت أبواب هذا العلم عند المتأخرين لذلك نجد الخطيب القزويني قد عرفه في التلخيص بقوله هو" [7]علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة." ويعرفه ابن خلدون من خلال ذكر فنونه ومضمونه بقوله :"هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إما بسجع يفصله أو تجنيس يفصل بين ألفاظه ، أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه ، لاشتراك اللفظ بينهما ، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك"[8] .

وعلى هذا يصبح علم البديع معنيا بتتبع أوجه المعنى التي تزيد الكلام حسنا وطلاوة ، بعد تحقق حسنه الذاتي بالبلاغة ، بمعنى إذا كانت المحسنات البديعية مقصودة لذاتها وليس في إيرادها إلا تحري مطابقة الألفاظ والحروف وموافقة الإيقاع من غير اعتبار للمعنى في ذلك فقد خرجت عن حد البلاغة إلى التكلف والصنعة التي انتشرت في عصر الضعف .

وتقسم المحسنات البديعية بحسب المعنى واللفظ ‘لى معنوية ولفظية.

فالمعنوية : التورية والاستخدام واللف والنشر والجمع والتفريق والتقسيم وحسن التعليل وتأكيد المدح أو الذم بما يشبه الآخر والادماج والتوجيه وتجاهل العارف والقول بالموجب والمبالغة المقبولة ومراعاة النظير والعكس والمشاكلة والمطابقة والأرصاد والتجريد والمذهب الكلامي ونفي الشيء بالإجابة وبراعة المطلب والتفريع و الاستتباع . واللفظية: منها الجناس ورد العجز على الصدر والسجع والقلب والتوشيح ولزوم ما لا يلزم والانسجام.

---

[7] - ينظر: عبد العزيز عتيق : في البلاغة العربية ، ص425.

[8] - نفسه ، ص425.